من ذكريات العراق

تأمل ساعة*

بقلم احمد حسن الزيات

في الشرفة الوسيعة من فندق (كارلتون) جلست أطالع في صفحة دجلة ما خطته يدُ القرون . وكانت شمس الأصيل تنفض تبرها على أمواج النهر وسطوح الكرخ وحواشي الأفق ، والطبيعة الأنيقة تنعم بالصفاء والبهاء والدفء ، بعد ما أجهدها رعد الأمس وبرقه ، وأغصّها وابل الغمام وودقه ، فالسماء مصرية الأديم ، والجو عبهري النسيم ، والأفق الغربي مزدان بقزعات من السحاب الأبيض الرقيق ، والماء قد استحال لجينه نضارا من طول ما حمل اليه السيل من كنوز الجبل .

أخذت أصوّب النظر وأصعده في النهر والجسر والشاطىء . فأرى أنماطاً من الناس ، وأخلاطاً من الأجناس ، وصوراً من الأشياء ، تنكرها العين ويعرفها القلب ، لأنها شرقية ، ولأنها عربية ، ولأنها مظلومة ! ....

ذكّرتني هذه المناظرُ مناظرَ غابت في سويداء القلب ولفائفه : ذكرني تقابلُ الرصافة والكرخ على دجلة ، تقابلَ القاهرة والجيزة على النيل الأعلى ، والمنصورة وطلخا على النيل الأسفل ! .

وفي هذه الأماكن الحبيبة مدرج طفولتي وشبابي ، ومنتقى أحبتي وصحابي . فهاجت شجوني وسالت شؤوني . فوضعت جبهتي المضطرمة على سياج الشرفة البارد ، وعدت بالذاكرة وشيكاً إلى بغداد . ثم انطويت على نفسي ، وأخذت أتفكر وأتذكر وأعمّ في غيابة الماضي ، حتى انقطع ما بيني وبين الحاضر ، وانتحى من حواليّ العالم بأسره

وحينئذ انبعث من جانب الكرخ صوت شادٍ يرجّع بالنغم العربي الشجي ، فخيل إليّ أني أرى دجلة (الأمين) . وجسر (ابن الجهم) ، وكرخ المُجّان والظرفاء من أهل بغداد المترفة ؛ ووقع في سمعي أن هذا الشادي يقول :

سقى الله باب الكرخ من مُنتزه ... ... في قصر وضاح ومركبة الزلال

مساحب أذيال القيان ومسرح الـ ... ... حسان ومثوى كل خرق معذل

وصوّر لي أني أسمع غناء الملاحين في الزلازل ، وأبصر (الدلفين) و (العقاب)[1] يمخران العباب بالأمين وحسانه وقيانه ونداماه ! . . . وتراءت لي على الشاطئ الشرقي قصور البرامكة الحزينة ، يقابلها على الشاطئ الغربي قصور الخلفاء والأمراء تعج بالجواري والغلمان ، وتضج بالشعراء والندمان ، وتموج بالسادة والقادة والجند ، وتفيض بالنعيم والجلال والعظمة ، وتمثلت في خاطري بغداد الأمس كباريس اليوم في عدد سكانها ، وفخامة بنيانها ، واتساع رقعتها ، وازدهار مدنيتها ، وانبعاث الحضارة من مجامعها ومنابرها ، وانبثاق الهداية من جوامعها[2] ومنائرها . إلا أن باريس تشع في أجواء مشرقة تسطع فيها شموس أخرى تضارعها وتصارعها ، أما بغداد التي عنت لها وجوه القياصرة ، وكان من جندها أبناء الدهاقين والأكاسرة ، فكانت شمساً واحدة ترسل الضوء والحرارة والحياة في القارات الثلاث فتبدد ما غشيها من ظلام وخمود ونوم

لا أدري متى كنت أصحو من نشوة هذه الذكريات الحلوة المرة ، لو لم يُعدْني الى وجودي صوت منكر من أصوات الحضارة الحديثة ، قد انطلق من جوف مركب بخاري عظيم ، كان يشق بجيزومه صدر دجلة ، فسرحت طرفي في الأفق فاذا شمس الشرق تجاهد ظلام الغرب ، واذا القزعات قد ارتد بياضها سواداً ضربت في حواشيه حمرة الشفق ، فصارت كأجنحة الغربان الدامية ، أو كقطع من الفحم علقت بأطرافها نار حامية . ثم نظرت شمالا فاذا المكان الذي سجدت فيه رسل (شارلمان) امام الرشيد يخفق فوقه علم غريب[3] ، لا هو أسود ولا أبيض ولا أخضر[4] واذا قطع من السحائب السود قد انعقدت فوقه بدة هنالك . . . فقلت في نفسي ليت شعري أهذه بقايا أعلام الرشيد والمأمون ، أم هذه أثواب الحداد لبستها سماء العراق على السعدون[5] ؟ !

الزيات

(١) الدلفين والعقاب مركبان من مراكب الأمين (٢) جوامع جمع جامعة
(٣) ذلك العلم الانجليزي على دار المعتمد البريطاني في الكرخ
(٤) هي ألوان اعلام العرب الثلاثة في القارات الثلاث
(٥) كانت العراق يومئذ لا تزال مروعة باغتيال زعيمها الكبير عبد المحسن السعدون

* كتبت في ٢٦ نوفمبر ١٩٢٩ على نهر دجلة في بغداد